فقه الواقع عند الإمام الدّاودي
ظاهرة التّسول أنموذجا

بقلم
عبد الجبار اليمان (*) أ.د. مصطفى وينتن (**)

ملخص

تعتبر ظاهرة التسول من الأمراض التي تعاني منها المجتمعات قديما وحديثا، كونها ترجع بالوبال على المجتمع من خلال تثبيط عجلة الحركة الاقتصادية، ومن العلماء الذين كان لهم دور بارز في علاج هذه الظاهرة الإمام أحمد بن نصر الداودي ت 402هـ من خلال الواقع الذي عاشه في فترة الدولة العبيدية، وتأتي هذه الدراسة، لتبين خطر هذه الظاهرة والتبعات المترتبة عنها، واستخلاص الحلول للحد منها وفق ما تقتضيه أحكام الفقه الإسلامي.

الكلمات المفتاحية:التسول، فقه الواقع، الإمام الداودي، المجتمع، الفقه الإسلامي.

(*) طالب دكتوراه الطور الثالث، تخصص: فقه وأصول، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة غرداية.
بإشراف: أ.د. مصطفى وينتن. Muouinten2002@gmail.com
(**) أستاذ التعليم العالي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة غرداية.
muouinten2002@gmail.com

مقدمة

جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد الدينية والدنيوية؛ حيث يظهر ذلك في مرونتها ومسايرتها لواقع الناس المعاش، حتى ترفع عنهم الحرج والمشقة، فما من واقعة إلاّ ويتم تشخيصها ويوصف لها دواء من كتاب الله أو سنة النبي ﷺ، وإلى هذا الحد يأتي دور العلماء إلى النصح والإرشاد إلى ما جاءت الشريعة الإسلامية من أجله وهو تحقيق مصالح العباد، فهم من يتولون هذا التشخيص كونهم لديهم الآليات اللازمة للكشف عن الأمراض الاجتماعية التي تحل بالأمم، ومن بين هؤلاء العلماء الإمام أحمد بن نصر الداودي ت(402 هـ)، الذي كان له اهتمام كبير بواقع الناس المعاش، كونه عاش في فترة الدولة العبيدية التي شوهد فيها الظلم من طرف حكامها من خلال أخذ أموال الأبرياء جورا ومصادرة الأراضي، مما أوقع خللا في الحياة الاجتماعية وتعطيل حركة العجلة الاقتصادية، كون المال مقتصرا عن الطبقة الحاكمة فحسب، فهذه الحالة لم تك سحابة عابرة على الإمام الداودي وإنما حزّت في نفسه وأسس دستورا يعالج من خلاله القضايا الاقتصادية ويحارب الفساد السائد وكل ذلك وفق النظام المالي الإسلامي.

ومن بين المسائل التي عالجها الإمام الداودي والتي كانت نابعة من الواقع المحيط به هي ظاهر ة التسول؛ هذا المرض العضال الذي عانت منه الأمم عبر الأزمان، فأصبح لا يخلو مكان إلا وتجد فيه من يحترف هذه الظاهرة؛ في الأسواق وفي أبواب المساجد وفي موقف الحافلات، وللداودي جهودا جديرة بالدراسة في مجال تصحيح أوضاع اقتصادية وظواهر سلبية، منها ظاهرة التسول، ونحاول في هذه الدراسة أن نظهر هذا الجهد من زاوية نظر علمية، رجاء أن تكون إسهاما في معالجة الحالة المعاصرة؛ لتكرر الظاهرة وتشابهها بين عصر الداودي وعصرنا

– فمن هو الإمام الداودي؟ وما هي أهم مميزات الواقع الذي عاشه في تلك الفترة؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى ظهور ظاهرة التسول؟ وكيف عالج الفقه الإسلامي هذه الظاهرة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات اتبعت الخطة التالية:

المقدمة: وتتضمن أهمية الموضوع.

المطلب الأول: وتناولت فيه ترجمة للمؤلف(اسمه ونسبه، شيوخه، تلاميذه، مؤلفاته، ثناء العلماء عليه، وفاته).

المطلب الثاني: الداودي وفقه الواقع: وتناولت فيه(تعريف فقه الواقع، استمداده، مقوماته، أهمية فقه الواقع عند الإمام الداودي).

المطلب الثالث: ظاهرة التسول وكيفية علاجها عند الإمام الداودي(تعريف التسول، الفرق بين المسألة والتسول، تشخيص ظاهرة التسول عند الإمام الداودي، أنواع المسألة عند الإمام الداودي، الضوابط التي وضعها النبي ﷺ للمسألة، مضار التسول، كيفية علاج ظاهرة التسول عند الإمام الداودي، قرار هيئة كبار العلماء بشأن ذمّ المسألة).

الخاتمة: وفيها أهم النتائج المتوصل إليها من البحث.

المطلب الأول: ترجمة مختصرة للإمام الداودي

1. اسمه ونسبه وكنيته: هو أحمد بن نصر الداوُدي الأسدي من أئمة المالكية بالمغرب، يكنى بأبي جعفر[1]، وكناه الزركلي بأبي حفص[2] وهو غير صحيح لاتفاق المترجمين له على أن كنيته أبو جعفر.

2. مولده و نشأته: لا يعرف للداوُدي تاريخ ولادة ولا مكانها ، ولكن الشيخ عبد العزيز دخان استنتج في كتابه موسوعة الإمام الداوُدي بالتقريب تاريخا لولادته حيث

قال:"إذا عرف أن من أقرانه أبا الحسن القابسي سنة (324 هـ) وتوفي سنة (403هـ) أي بعد ولادة الداوُدي بسنة واحدة فلا بد أن تكون ولادته الداوُدي قريبة من ذلك و الله أعلم".[3]

أصله من المسيلة و قيل من بسكرة ،و كان بطرابلس.[4] وقد نسبه ابن خير الأشبيلي (ت575هـ) في فهرسته إلى المسيلة فقال:"أبو جعفر أحمد بن نصر الداوُدي الفقيه المالكي من أهل المسيلة ".[5]

وهناك ما يدل على أنه حدَّث بالمسيلة قبل أن يخرج منها إلى طرابلس، ففي ترجمة أحد تلامذته ، وهو أحمد بن محمد بن عبيدة المعروف بابن ميمون أنه سمع من أبي جعفر في المسيلة...ويحتمل أن يكون أقام بها مدة بعد رجوعه من طرابلس وقبل أن يقصد تلمسان ليقضي بها بقية أيامه.[6]

وأما عن تفاصيل حياته فليس في المصادر التي ترجمت له إلى ما يشير إلى ذلك، كل الذي نعرفه أنه بعد إقامته بطرابلس مدة من الزمن لم يرد في النصوص ما يحددها، انتقل إلى مدينة تلمسان في أقصى غرب الجزائر حيث أقام بها مدة لا نعرف تحديدها حتى وافاه الأجل هناك.[7]

3. شيوخه: لم تذكر التراجم للداوُدي شيخا أخذ منه العلم ، حيث أنه كان ينكر على معاصريه من علماء القيروان سكناهم في مملكة بني عبيد وبقاءهم بين أظهرهم ، و أنه كتب إليهم مرة بذلك فأجابوه اسكت لا شيخ لك؛ فلم يتفقه في أكثر علمه عند إمام مشهور و إنما وصل إلى ما وصل بإدراكه.[8]

لكن الدكتور عبد العزيز دخان وقف ناقدا أمام هذا الكلام ولم يقتنع أن يكون الداوُدي على هذه المنزلة من العلم في اللغة والحديث و الفقه ثم يكون سجله خاليا من المشايخ الذين أخذ عنهم ففتش ووجد مشايخ للداوُدي ، ونذكر منهم ما يلي:[9]

أ- إبراهيم بن عبد الله أبو إسحاق الزبيدي المعروف بالقلانسي: رجل صالح فقيه فاضل عالم بالكلام والرد على المخالفين، له في ذلك تآليف حسنة وله كتاب في الإمامة والرد على الرافضة ، روى عنه إبراهيم بن سعيد و أبو جعفر الداوُدي و غيرهما .[10]

ب- إبراهيم بن خلف :أندلسي سمع أباه و رحل فسمع بكار بن محمد و أبا سعيد بن الأعرابي وغيرهما روى عنه أبو جعفر أحمد بن نصر الداوُدي ذكر ذلك أبو الوليد هشام بن عبد الرحمن الصابوني في برنامجه وحدث بموطأ مالك رواية أبي المصعب الزهري وعبد الله بن مسلمة القعنبي ويحيى بن يحيى الأندلسي عن الداوُدي عنه قرأت ذلك بخط محمد بن عباد .[11]

ج- أبو بكر محمد بن سليمان : قد نقل البرزلي في فتواه أن المازري نقل عن الداوُدي في النصيحة عن النعالي: يسقط فرض الحج عمن أراده و إن لم يحرم .[12]

4. تلاميذه : المتتبع لتراث الإمام الداوُدي يجزم أنه استفاد منه الكثيرون و طلب العلم على يده العدد الكبير، لكن كتب التراجم لم تبين إلا القليل منهم ، ومع ذلك فقد استطاع الشيخ عبد العزيز دخان أن يعثر على عدد لا بأس به من تلاميذه أوصلهم في كتابه موسوعة الإمام الداوُدي إلى واحد و عشرين تلميذا .[13]

ونذكر على سبيل التمثيل لا الحصر بعضا منهم فيما يأتي :

أ- أبو عبد الملك مروان بن علي القطان: يعرف بالبوني القرطبي الإمام الفقيه المحدث الحافظ روى عن الأصيلي وأبي المطرف بن فطيس والقابسي وأبي جعفر أحمد الداوُدي وصحبه وأخذ عنه معظم ما عنده من روايته وتآليفه روى عنه حاتم الطرابلسي وغيره، ألف مختصرا في تفسير الموطأ، توفي قبل سنة (440هـ) .[14]

ب- أبو بكر أحمد بن أبي عمر بن أبي زيد: الفقيه الإمام الفاضل العارف بالأحكام والنوازل القاضي العادل، روى التهذيب عن مؤلفه البرادعي و كان البرادعي يثني

عليه كثيرا ، أخذ عم أبي جعفر الداوُدي وغيره توفي بعد سنة (460هـ) .[15]

ج- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري: الإمام الحافظ النظار شيخ علماء الأندلس ألّف في الموطأ كتبا مفيدة ، مولده سنة(368هـ) وتوفي بشاطبة في ربيع الثاني سنة(463هـ).[16]

5.مؤلفاته :

- النصيحة في شرح البخاري[17] :وهو شرح كامل لصحيح البخاري إلا أنه مفقود لا تعرف نسخته .[18]

- النامي في شرح الموطأ: ذكره ابن خير الأشبيلي في ذكر الموطأات و ما يتصل بها؛ حيث قال: كتاب تفسير الموطأ لأبي جعفر أحمد بن نصر الداوُدي الفقيه المالكي من أهل المسيلة وسماه الكتاب النامي .[19]

- كتاب في التفسير: ذكره الثعالبي في تفسيره وأكثر من العزو إليه .20

- كتاب الواعي في الفقه [21].

- كتاب الإيضاح في الرد على القدرية [22].

- كتاب البيان[23]: ولا يعلم بوجوده ولا موضوعه و ربما يكون كتابا في أصول الفقه.

- كتاب الأسئلة و الأجوبة في الفقه مخطوط بجامع الزيتونة .[24]

- كتاب الأصول .[25]

- كتاب الأموال: الذي صرح به العيني في كتابه عمدة القاري بقوله: (كما حكاه عنه الداوُدي في كتاب الأموال).[26]

6.ثناء العلماء عليه: لقد حظي الإمام الداوُدي بمكانة علمية كبيرة :حيث شهد له كبار العلماء بالفضل والعلم.

قال عنه القاضي عياض: "كان فقيها، فاضلا، عالما مُتْقِنًا مؤلفا مجيدا، له حظ من

اللسان والحديث و النظر " .[27]

وقد أثنى عليه الخزاعي التلمساني وعدَّه من الثقات فقال :"وقد نقل الثقات الأثبات العلماء كأبي عبيد القاسم بن سلام وأبي الحسن علي بن خلف، وأبي جعفر أحمد بن نصر الداوُدي و أبي عمر ابن عبد البر..." .[28]

كما أشاد به مخلوف في شجرة النور الزكية .

حيث قال عنه بأنه العالم الفاضل المُتْقِنُ الفقيه له حظ من اللسان والحديث والنظر لم يتفقه في أكثر علمه على إمام مشهور وإنما وصل بإدراكه و ذكائه .[29]

وقال ابن فرحون وكان فقيها مُتْقِنًا مؤلفا مجيدا له حظ من اللسان والحديث والنظر.[30]

حقيق أن يشاد بمقام الإمام الداوُدي الذي استفاد منه كثير العلماء باجتهاداته وآرائه في مؤلفاتهم حيث كان عالِمًا موسوعيا ألّف في أغلب العلوم كالتفسير و الحديث و الفقه و الأصول و اللغة و غيرها.

7. وفاته: توفي بتلمسان سنة اثنين و أربعمائة و قبره عند باب العقبة ، وقيل توفي سنة إحدى عشرة، والأول أصح .[31]

المطلب الثاني : الداودي وفقه الواقع

لقد كان للداودي نظرة متخصصة في فقه الواقع وذلك من خلال الأوضاع السائدة في الحقبة الزمنية التي عاش فيها وقبل أن نخلص إلى هذا الترابط لا بأس أن نأخذ صورة عامة على فقه الواقع و خصائصه و مقوماته.

1. تعريف فقه الواقع: هناك عدة تعريفات لفقه الواقع نذكر أهمها:

أ- عرّفه علي بن حسين على أنه معرفة حكم الله سبحانه في كتابه وسنة رسوله ﷺ وتطبيق ذلك على الوقائع الحاضرة والمسائل المعاصرة .[32]

ب- وعرفه ناصر الدين الألباني بأنه الوقوف على ما يهم المسلمين مما يتعلق بشؤونهم أو كيد أعدائهم ، لتحذيرهم و النهوض بهم واقعيًّا لا كلامًا نظريًّا.[33]

ج- كما عرفه أحمد بوعود بأنه "هو الفهم العميق لما تدور عليه حياة الناس وما يعترضها وما يوجهها".[34]

د- كذلك عرفه ناصر بن سليمان العمر بأنه علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة، من العوامل المؤثرة في المجتمعات و القوى المهيمنة على الدول والأفكار الموجهة لزعزعة العقيدة والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيها في الحاضر والمستقبل.[35]

فالمتأمل في هذه التعاريف يرى أنها تعالج ما يهم المسلمين من شؤون حياتهم، وهذا يبين مدى شمولية الشريعة الإسلامية ومسايرتها لواقع الناس.

وعليه يمكن أن نعرف فقه الواقع على أنه "علم يعالج فيه المستجدات التي تحدث في حياة الناس واستنباط الحكم الشرعي فيها دون الجمود على ظاهر النص، من أجل مراعاة مصالح العباد.

2. **استمداد فقه الواقع:** المتأمل في فقه الوقع يرى أنه علم مستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعمل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

أ- من القرآن الكريم:

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل بعضه في مكة وبعضه في المدينة مع بديهة الاختلاف في الواقع زمانيًّا ومكانيًّا بينهما، كما أن الله تعالى أقرّ ما كان صالحا من أعراف الناس وأحوالهم في القرآن الكريم وهو ما يعبر عن مراعاة كتاب الله تعالى لواقع الناس وتقرير أحوالهم الصالحة غير المخالفة لتعاليمه وأحكامه، كما أن أسباب نزول كثير من آي القرآن الكريم والتي تنزل حسب الوقائع والأحداث تشير لمراعاة

حاجات الناس ومتطلباتهم .[36]

كذلك في عرض قصص الأنبياء و المرسلين دلالات واضحة على أن الأقوام والمجتمعات بالرغم من وحدة الرسالة ومصدرها ،كان الخطاب الإلهي الموجه إليهم بمختلف الأشكال نظرا لطبيعة واقعهم وما امتازوا به ولعل في معجزات الرسل ما يشير إلى ذلك، فهذا معجزته السحر لقوم امتازوا بالسحر، وهذا الشفاء وإحياء الموتى لقوم شغف واقعهم بهذا الأمر، ولنبينا ﷺ القرآن مناسبا لقوم اهتموا بالفصاحة والبيان .[37]

ب- من السنة:

قوله عليه الصلاة والسلام في بيع الرطب بالتمر «أَيَنْقُصُ إِذَا يَبِسَ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قَالَ: إِذًا فَلَا». وقوله «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَةِ، حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ، فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ». وغيّر رأيه صلوات الله عليه وسلم في المنزل يوم بدر ونزل على رأي الحباب بن المنذر.

كل ذلك يدل على مراعاته عليه الصلاة والسلام لحال الوقت وواقع الزمان والمكان وحقائق الأشياء .[38]

ج- من عمل الصحابة:

لا يخفى أن رأي واجتهاد عمر رضي الله عنه بسقوط سهم المؤلفة قلوبهم بعد وفاة رسول الله ﷺ وظهور الإسلام وقوله لكل من عيينة بن حصن والأقرع بن حابس حين جاءا ليشهد لهما بإقطاع في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - (إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل إن الله قد أعز الإسلام اذهبا فاجهدا علي جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما)؛ فهذا دليل واضح على فقه عمر رضي لله عنه بالواقع وأن علة و سبب إعطاء رسول الله ﷺ لهذه الفئة من الناس قد زالت وانتهت بظهور

الإسلام وقوته وعزه.[39]

3. مقومات فقه الواقع:

أ- القناعة بأهمية هذا العلم وأثره في حياة المسلمين و حاجة الأمة إليه حاضرا ومستقبلا .

ب- التأصيل الشرعي، في أول ما يجب أن يعتني به المتخصص في هذا الفن أن يبني علمه على أسس شرعية مستمدة من الكتاب والسنة.

ت- سعة الاطلاع وتجدده نظرا لتشعب هذا العلم، فيحتاج المتخصص فيه إلى كثير من الفنون، كما يحتاج هذا العلم إلى قدرة فائقة على المتابعة والبحث في كل جديد .

ث- القدرة على الرد والمقارنة والتحليل وذلك لمدى تأثيره سلبا أو إيجابا على فقه الحاضر ورؤية المستقبل.

ج- التفاعل الإيجابي مع الواقع فلبدا من خلال المعايشة والتفاعل مع الأحداث تفاعلا إيجابيًّا .[40]

4. أهمية فقه الواقع عند الإمام الداودي :

لقد عاش الإمام الداوُدي في فترة الدولة الفاطمية وشهد الأحداث التي كانت بين العبيديين وأهل المغرب خاصة لما سيطر العبيديون على القيروان، ولقد قاوم علماء السنة المد العبيدي الرافضي بكل الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل للسلاح عند الطغاة الظالمين، وتمحورت طرقهم في عدة أساليب منها :

أ- صمود العلماء والفقهاء ضد العبيديين وتحملهم للأذى والسجن والقتل مما يساهم في تثبيت عوام المسلمين على عقيدة أهل السنة.

ب- حصن علماء أهل السنة أهل الشمال الإفريقي بالفتاوى التي أوضحت كفر بني

عبيد وأنهم ليسوا من أهل القبلة، كما كفَّروا من دخل في دعوتهم راضيا.[41]

ولقد كان للإمام الداوُدي بصمته في هذا الوضع المعاش كونه أحد العلماء الذين عايشوا ذلك الواقع الأليم، وتمثلت مساهمة الإمام الداوُدي في التقليص من المد العبيدي بأمور أهمها :

1- تأليفه لكتاب الأموال الذي يزخر بنظرياته الاقتصادية التي تعالج الواقع، وفق ما حددته الشريعة الإسلامية للحد من ظلم حكام الدولة العبيدية وانحرافهم عن تطبيق منهج الإسلام في الأموال والممتلكات.

2 - إنكاره على علماء القيروان ببقائهم في القيروان حين سيطر عليها العبيديون، ولكن علماء القيروان أجابوه بأن بقاءهم هناك هو تثبيت للعامة من الفتن، ولعل نظرة الداودي في خروجهم إلى أماكن آمنة صائبة حتى تكون لهم الحرية في الفتاوى والأقضية التي تهم المسلمين، أما في حالة بقائهم، فلن يتركهم الحكام العبيديون بمزاولة أي نشاط.

فمنطلق كلام الداودي مع علماء القيروان كان من خلال تجربته العلمية الناجحة في طرابلس حيث علّم و أفتى وألّف وتوافدت عليه طلاب العلم من كل مكان، ولو كان في معمعة الأزمة، لما استطاع أن يحقق ما حققه في تلك الفترة.

من خلال ما سبق نرى أن الإمام الداودي متشبعا بمقاصد الشريعة الإسلامية التي جاءت لمراعاة أحوال الناس والتسيير بما يلاءم واقعهم .

"إن هذا الدّين من سماته العظيمة ومميزاته الكريمة أنه ينقل النص الموحى به من عند الله إلى التطبيق العملي في واقع الناس وحياتهم فمجرد العلم بالأحكام الشرعية لا يغني صاحبه شيئًا ما لم تتحول هذه المعرفة إلى عمل واقعي مشاهد محسوس، وإن القرآن الكريم والسنة النبوية ليسا للمتاع العقلي ولا للمعرفة المجردة وإنما جاء بهما

الرسول ﷺ من عند ربه ليكونا منهاج حياة، ولذلك لم ينزل الله عز وجل هذا القرآن جملة واحدة، وإنما أنزله وفق الحاجات المتجددة ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية ".[42]

المطلب الثالث: ظاهرة التسول وكيفية علاجها عند الإمام الداودي

لقد مر المتسولون بتغيرات متعددة في فترات تاريخية مختلفة؛ حيث عانت الرعية في حكم الدولة الفاطمية كثيرا من ظلم الحكام والذي يتمثل إمّا في شكل مضايقات من الجند، أو في الغلاء وارتفاع الأسعار وندرة الأقوات وانتشار الجوع والبؤس وكثرة حوادث السلب، ومن بين مظاهر التسول في هذه الفترة لما كان الناس يقومون بزيارة المقابر في الأعياد والمواسم تقدم الصدقات للمتسولين في المقابر كصدقة يهبون ثوابها للموتى، وكان التسول يتم بشكل صريح نظرا لما وصل إليه حال الفقراء آنذاك من بؤس وعوز.[1]

1/ تعريف التسوّل

أ/ لغة: سأله كذا وعن كذا وبكذا بمعنى سؤالاً و سآلـةً ومسألة وتسآلاً وسألةً، والأمر: سلْ، واسألْ، ويقال: سال يسال، كخاف يخاف، وهما يتساولان، واسأله سؤله ومسألته: قضى حاجته.[43]

تسولت له الشيء بالتثقيل زينته، وسألت الله العافية طلبتها، سؤالاً وسألةً، وجمعها مسائل بالهمز وسألته عن كذا استعلمته، وتساءلوا سأل بعضهم بعضا والسؤال ما يسأل.[44]

والسؤال استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى مال، فاستدعاء معرفة جوابه على اللسان واليد خليفة لها إما بردٍّ أو بوعدٍ أو برٍّ.[45]

والفقير يسمى سائلا إذا كان مستدعيا لشيءٍ قاله الراغب و به فسِّر قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.[46] والسؤل: ما سألته: وفي التنزيل العزيز: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، أي أعطيت أمنيتك التي سألتها.[47]

أما تسوّل يتسوّل، تسوّلاً، فهو متسوّلٌ. تسوّل فلان: شحذ، سأل واستعطى:طلب العطية والإحسان، تسوّل الحماية: التمسها – أحدث أساليب التسوّل – أعطيت المتسول بعض النقود.[48]

ب/ اصطلاحا:

التسوّل بهذا المدلول لم يكن معهودا عن الفقهاء قديما حيث كان المعهود تسميته بالمسألة، فالتعاريف التي سأسردها هي تعاريف معاصرة للتسوّل والتي أذكر منها:

أ/ عرفه علي الشرفات بأنه : امتهان طلب المال من الناس، بأي وسيلة كانت دون مسوغ شرعي.[49]

ب/ عرفه صبري خليل على أنه: طلب مساعدة مالية نقدية أو عينية، طعام أو الكساء من الآخرين من خلال استجداء عطفهم وكرمهم، إما بسوء الحال أو العاهات أو بالأطفال، بغض النظر عن صدق المتسوّلين أو كذبهم .[50]

فالمتمعن في التعريفات المعاصرة للتسوّل يتبين له أن جميعها تصب في مصب واحد. وعليه يمكن أن نعرفه بأنه: طلب الصدقة من الناس باستعمال طرق معينة لاستمالة قلوب المتطوعين، إما بالمظهر أو بالمرض أو بادعاء الحاجة إلى ذلك.

2/ الفرق بين المسألة والتسوّل:

لا يوجد فرق بين المسألة والتسوّل، فالناس قد استبدلوا لفظ المسألة بلفظ التسوّل، وجعلوه مكان المصطلح الشرعي الذي ورد في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، ولذا لم يوجد فرق بين اللفظين في المدلول، فإذا قلنا المسألة فإنما نستخدم الاصطلاح الشرعي وإذا ما قلنا التسوّل فإنما نستخدم الاصطلاح الذي شاع ودرج بين الناس

واشتهر على ألسنتهم.[51]

وعلى الرغم من أن استعمال لفظ التسوّل مرفوض عند الأكثرين وأنه استعمال مستحدث لأنها لم ترد به المعاجم القديمة، فإنه يمكن تصحيحه على أنه مأخوذ من سأل سوالاً بالواو دون أن تهمز تخفيفًا، وقد أجاز مجمع اللغة المصري هذا الاستعمال استنادًا إلى أصل معنى اللفظ وهو السؤال والاستعطاء وأطلقت على الشحاذة باعتبارها إلحاحًا في طلب العطايا، وهو إطلاق سديد جاء عن طريق المجاز المرسل بعلاقة العموم و الخصوص.[52]

3/ تشخيص ظاهرة التسول عند الإمام الداودي:

لقد بينا سالفا أن الإمام الداودي عاش في عصر الدولة العبيدية الذي اختل فيها النظام المالي الإسلامي نتيجة استغلال حكام هذه الدولة الثروات لمصلحتهم الخاصة وكذلك مصادرة أموال الرعية وجعلهم خدمًا فيها، فتفشى الفقر و الحاجة عند العامة، مما أدى إلى طرق باب المسألة حتى يوفر الشخص ما يستحقه.

فالداودي من خلال مشاهدته لهذا الواقع المر اعتبر أن التسوّل ظاهرة مرضية تظهر في المجتمعات التي تنخفض فيها قيمة العمل ولهذا افتتح الداودي في كتابه الأموال الحديث عن المسألة بقوله تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾، ثم ساق بعد ذلك جملة من الأحاديث النبوية التي تحث على العمل وتعتبر التسوّل أضيق أبواب الرزق.[53]

ولقد جاء في ذم المسألة الأحاديث الكثيرة منها:

1/ عن حكيم بن حزام قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته ثم قال لي: "يا حكيم إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه . وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا

خير من اليد السفلى " .[54]

في قوله:"واليد العليا خير من اليد السفلى"، قال الداودي ليست السفلى والعليا المعطاة والمعطية بغير مسألة ، وإنما هي السائلة والمسئولة، وليست كل سائلة تكون خيرا من المسؤولة، وإنما ذلك لمن سأل وأظهر من الفقر فوق ما به، وأما عند الضرورة أو ليكافئ، فليس من ذلك وقد استطعم الخضر وموسى أهل القرية.[55]

2/ كذلك أن النبي ﷺ قال:" لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليست في وجهه مزعة لحم".[56]

معنى الحديث: أن ما يزال الرجل المتسوّل يكثر من التسوّل ويلح في سؤال الناس من غير عوز وفاقه، وإنما يسأل تكثرا ويذل نفسه ويمتهن كرامته التي أوجب الله عليه صيانتها.[57]

4/ أنواع المسألة عند الإمام الداودي:

أ- المسألة المحرمة: وهو أن يسأل بمعنى الفقر من ليس بفقير أو يظهر من الفقر أكثر مما هو به.

ب- المسألة المكروهة: وهو أن يسأل وله أوقية، ولا يحرم ذلك عليه لأن النبي ﷺ أعطى حكيمًا مرات وكان يملك أكثر من ذلك، غير أنه كان ممن تجوز الصدقة له، لأنه كان من المؤلفة قلوبهم، ولو كان حرامًا ما أعطاه إياه غير أنه كره ذلك له.

ج- المسألة الواجبة: فمن اضطر إلى المسألة ففرض عليه أن يسأل ولا يكون المسئول أفضل منه، لأن موسى والخضر استطعما أهل قرية.

د- المسألة الحلال: وهو أن يسأل على غير وجه الفقر المعروف لأمر نزل به لحاجة أصابته، أو حمالة تحمل بها أودية لزمته أو ليكافئ على ما يؤتى إليه فهذا حلال.[58]

فبهذا أعطى الداودي الحكم الشرعي للتسول، حيث أحاط به من كل الجوانب وفي

هذا دليل على تطلعه على واقع الناس، مما يبيّن سماحة الشريعة ومرونتها لتحقيق مصالح العباد.

ومما يزيد حكم التسول عند الداودي حلة هو المقصد الشرعي من تحريم هذه الظاهرة الذي وضحه أبو حامد الغزالي – رحمه الله – بقوله : السؤال حرام في الأصل، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، وإنما قلنا: إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

1- إظهار الشكوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى.

2- أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله تعالى بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فهو فيه عزه.

3- أنه لا ينفك عنه إيذاء المسئول غالبا لأنه ربما لا تسمح له نفسه البذل عن طيب قلب منه فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ و إن منع ربما استحيا و تأذى في نفسه بالمنع .[59]

ومما يؤيد هذا القول بالنسبة لحكم التسوّل هو حديث قبيصة بن مخارق الهلالي حيث قال: تحمَّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله منها فقال ﷺ : (أقم يا قبيصة حتى تجيئنا الصدقة فنأمر لك بها) ثم قال :(يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لإحدى ثلاث: رجل تحمل بحمالة فحلَّت له المسألة حتى يُصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة فاجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يُصيب قِواماً من عيش أو سداداً من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلَّت له المسألة حتى يُصيب قواماً من عيش فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحْتٌ يأكلها صاحبها سُحتاً).[60]

5/ الضوابط التي وضعها النبي ﷺ للمسألة:

أ- السؤال للحاجة، وذلك حتى لا تفوت مصالح الناس بفقد المال أو انعدامه.

ب- عدم القدرة على العمل، وذلك مراعاة للمحتاج الضعيف الذي لا يقوى عن العمل

ت- أن يكون السؤال بقدر الحاجة فإذا توفرت المتطلبات الضرورية للمعيشة أمسك عن المسألة.

ث- البعد عن الطمع والشره في المسألة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن المال له مذاق حلو طيب يدفع الإنسان إلى الاستزادة منه

ج- ترك الإلحاف في المسألة، الإلحاف هو الإلحاح في المسألة أو هو استعمال الخشونة في الطلب.

ح- أن لا يؤذي السائل من يسأله؛ لأن بعض ذوي الحاجة يعمد إلى إحراج من يسأله العون والمساعدة.[61]

6/ مضار التسول:

أ- يورث الذل والهوان في الدنيا والآخرة، كما يورث سفولا وانحطاطا في المجتمع.

ب- أنه عمل دنيء تمجه الأذواق السليمة إضافة إلى استحقاق الوعيد عليه في الآخرة.

ج- يعتبر التسوّل دليلا على دناءة النفس وحقارتها.

ث- بالتسوّل تنتزع البركة من المال وحرمان إجابة الدعاء ودليل على سوء الخاتمة.[62]

7/ علاج ظاهرة التسول عند الإمام الداودي:

أ- يرى الداودي أن إضاعة المال تؤدي إلى الفقر الذي يخشى منه الفتنة وكان الشارع ﷺ يتعوذ من الفقر وفتنه[63] لأن من فتنة المال الطمع لما في يد الغير التي أحد أوجهها باب التسوّل، فينبغي مراعاة حرمة الأموال وصرفه بترشيد محكم دون إسراف ولا تقتير.

ب- كذلك يرى الداودي أن المبادرة بمساعدة الفقراء وأهل الخصاصة كفيلة بمحاصرة ظاهرة التسوّل، قبل أن يضطر الناس إليها، لهذا يفرق الداودي بين المعونة التي تأتي عن غير المسألة وما تأتي عن طريق السؤال فلأولى لا حرج فيها خلافا للثانية.[64]

ت- يرى الداودي أن العمل وكسب الإنسان بيده تغنيه عن التذلل للناس أعطوه أو منعوه؛ حيث أورد حديث النبي ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي أحدا أتاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه». وقد كرم النبي ﷺ اليد العاملة، فعندما دخل رجل على رسول الله ﷺ مدّ النبي يده ليصافح الرجل فاعتذر الرجل لخشونة يديه من أثر العمل، ولكن النبي الكريم أخذ يد الرجل وقال له : هذه يدٌ يحبها الله و رسوله.[65]

ث- يرى الداودي أن الفضل في الكفاف وأن الفقر والغنى محنتان من الله، وبليتان يبلوهما أخيار عباده ليبدي صبر الصابرين، وشكر الشاكرين وطغيان المبطرين واستكثار الأشرين.[66] وحد الكفاف عند الداودي هو المنزلة الوسطى بين الفقر والغنى.[67] فمن اقتنع بهذه المعايير، فسيرضى بما قسمه الله له ولا يتطلع إلى ما في يد غيره.

ج- يرى الداودي كذلك أن العقوبة التي تنتظر المتسوّل بغير حاجة في الآخرة كفيلة بأن تبعد المتسولين عن هذا المرض العضال، حيث ساق في كتابه الأموال

أحاديث في هذا الجانب.

الخاتمة

تناول هذا البحث فقه الواقع عند الإمام الداودي من خلال تشخيص ظاهرة التسول وتوصل البحث إلى النتائج التالية:

1- يعتبر الإمام الداودي أحد علماء الجزائر الذين خدموا السنة النبوية والفقه الإسلامي من خلال المؤلفات التي ألّفها في مجالات متعددة.

2- ظلم الدولة العبيدية حيث استبيحت أموال الأبرياء ومصادرة أراضيهم بغير وجه حق.

3- فقه الواقع علم يعالج المستجدات التي تحدث في حياة الناس واستنباط الحكم الشرعي فيها دون الجمود على ظاهر الناس من أجل مراعاة مصالح العباد.

4- فقه الواقع علم مستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعمل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

5- من مقومات فقه الواقع التفاعل الإيجابي مع الواقع المعاش والقدرة الفائقة على المتابعة والبحث في كل جديد.

6- لقد كان للداودي مساهمة فعالة في فقه الواقع من خلال تأليفه لكتاب الأموال الذي يزخر بنظريات اقتصادية تعالج الواقع.

7 - التسول هو طلب الصدقة من الناس باستعمال طرق معينة لاستمالة قلوب المتطوعين؛ إما بالمظهر أو بالمرض أو بادعاء الحاجة إلى ذلك.

8- لا فرق بين لفظ المسألة والتسول؛ فالمسألة تستخدم للاصطلاح الشرعي بينما التسول هو الذي شاع ودرج بين الناس واشتهر على ألسنتهم.

9- قسم الداودي المسألة إلى؛ مسألة محرمة ومسألة مكروهة ومسألة واجبة

ومسألة جائزة.

10- أنّ النبي ﷺ وضع ضوابط للمسألة وهي أن تكون للحاجة، وعدم القدرة على العمل، وأن يكون السؤال بقدر الحاجة.

11- وضع الداودي حلولا لعلاج ظاهرة التسول منها: عدم إضاعة المال والمبادرة بمساعدة الفقراء وكسب الإنسان بيده.

12- يرى الداودي أنّ الفضل في الكفاف وحد الكفاف عند الداودي هو المنزلة الوسطى بين الفقر والغنى.

13- جاء في قرار هيئة كبار العلماء بشأن ذم المسألة؛ أنّ المسألة لا تحق إلاّ لمن تحققت فيه الصفات الثلاث المذكورة في الحديث الذي أخرجه مسلم عن قبيصة بن مخارق.

الحواشي والإحالات:

1- احمد سعيد أعراب، ج7/ط:2، المغرب، وزارة الأوقاف، 1403هـ/1983م، ص.102

2- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1/ط15، لبنان، دار العلم للملايين، 2002، ص.264

3- عبد العزيز دخان، موسوعة الإمام الداوُدي ج1(طبعة خاصة، دار المعرفة 2013)، ص .43

4- القاضي عياض، ترتيب المدارك، مصدر سابق 102/7.

5- ابن خير الأشبيلي، الفهرسة، وضع حواشيه محمد فؤاد منصور(ط:1، لبنان، دار الكتب للملايين، 1419هـ/1998م)، ص76.

6- عبد العزيز دخان المرجع السابق53/1.

7- المرجع نفسه ص 50/1.

8-ينظر: ترتيب المدارك، 103/7، قاسم علي سعد، جمهرة تراجم فقهاء المالكية، (ط:1، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، 1423هـ/2002م)، ص292 و ينظر ابن فرحون، الديباج المذهب، تحق :محمد الأحمدي ج1(لا:ط، القاهرة، دار التراث لا:ت)ص 165.

9- عبد العزيز دخان المرجع السابق 53/1

10- ابن فرحون المصدر السابق 268/1.

11- محمد بن عبد الله البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، تحق: عبد السلام الهرانس، ج 1(ط:1، لبنان، دار الفكر، 1415هـ/1995م) ص125

12- البرزلي، جامع مسائل الأحكام، تحق : محمد الحبيب الهيلة، ج1(ط:1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002)ص 592

13- عبد العزيز دخان، مرجع سابق ص1/68.

14- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، تحق: عبد المجيد خيالي، ج1(ط:1، لبنان، دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م)ص170.

15- ينظر: مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق1/172

16- المرجع نفسه و سير أعلام النبلاء 157/18

17-القاضي عياض ترتيب المدارك7/103.

18-عبد العزيز دخان، مرجع سابق 1/78

19-ابن خير الأشبيلي، مرجع سابق 1/76

20-عبد العزيز دخان، 1مرجع سابق/81

21-عمرو كحالة، معجم المؤلفين، لا:ط، بيروت لبنان، دار الإحياء، لا :ت، 2/195 وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ج1(ط:2، بيروت، مؤسسة نويهض 140 : 298) ص 141.

22-عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق 1/141 و الديباج المذهب ص166

23-عبد العزيز دخان، مرجع سابق 1/82.

24-الداوُدي، الأموال، تحق رضا شحادة (ط :1، لبنان، دار الكتب العلمية، ، 2008)ص 34.

25-القاضي عياض، ترتيب المدارك، مصدر سابق 7/103

26-العيني، عمدة القاري، ج9/لا:ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا:ت) ص9

27-القاضي عياض، مصدر سابق 1/103.

28-الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، تحق : د.إحسان عباس، (ط :1، بيروت، دار العرب الإسلامي، 140هـ/1985م)ص 621، 622.

29-مخلوف، شجرة النور الزكية، مصدر سابق1/164.

30-ابن فرحون، الديباج المذهب، مصدر سابق 1/166.

31- القاضي عياض، مصدر سابق 7/104.

32-علي بن حسين، فقه الواقع بين النظرية والتطبيق، ط:3، فلسطين، شركة النور، 1420، ص24.

33-الألباني، سؤال وجواب حول فقه الواقع، ط:2، عمان، المكتبة الإسلامية، 1422هـ، ص 30.29 .
34-أحمد بوعود، فقه الواقع-أصول وضوابط-، ص17 .
35-ناصر بن سليمان العمر، رسالة في فقه الواقع، ص5 .
36-عامر الهوشان، فقه الواقع وأثره في الحكم الشرعي، ص5
37-سامي الصلاحات، فقه الواقع من منظور القطع و الظن، مجلة الشريعة و القانون، جامعة عجمان، كلية التربية والعلوم الإنسانية، ع21، 1425هـ، 2004م، ص5
38-بن بية، تنبيه المراجع على تأصيل فقه الواقع، ط:1، الإمارات، لا:ن، 2014، ص42
39-عادل الهوشان، مرجع سابق ص5 .
40-ناصر بن سليمان العمر، مرجع سابق، ص12 وما بعدها.
41-محمد الصلابي، الدولة الفاطمية، ط:1، القاهرة، مؤسسة اقرأ، 1427هـ، 2006م، ص 79.
42-محماس الجلعود، الموالاة و المعاداة في الشريعة الإسلامية .
43-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحق: محمد العرقسوسي، ج1(ط:8، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1426هـ/2005م)، ص1012.
44- الفيومي، المصباح المنير، (لا:ط، لبنان، مكتبة لبنان، 1987) ص 113.
45-الزبيدي، تاج العروس، تحق عبد الفتاح الحلو، ج 21(لا:ط، الكويت، لا: ن، 1418هـ/ 1997م)، ص157
46-المرجع نفسه 160/29.
47-ابن منظور، لسان العرب، ج11 (لا:ط، بيروت، دار صادر) ص319.
48-أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، (ط:1، القاهرة، عالم الكتب، 1429هـ2008م) ص1139.
49-علي الشرفات، ظاهرة التسول حكمها و آثارها، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، الأردن، المجلد التاسع، ع2، 1434هـ/2013م ص3
50-صبري خليل، ظاهرة التسوّل: أنماطها وآثارها وآليات معالجتها في الفكر الاجتماعي الإسلامي، ص1
51-علي الشرفات، مرجع سابق، ص3.
52-أحمد مختار عمر، معجم الصواب اللغوي، ج1(ط:1، القاهرة، عالم الكتب، 1429هـ/2008م) ص 236.
53-محمد ذياب، الفكر الاقتصادي عند أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي دراسة تحليلية لكتابه الأموال،

رسالة ماجستير في الاقتصاد الإسلامي، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، باتنة، 2007، ص206.

54-مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج2(ط:1، لبنان، دار الكتب العلمية 1412/1991).

55-زين الدين أبي الفضل، طرح الترتيب، ج4(لا:ط، لبنان، إحياء التراث، لا: ت) ص76.

56-أخرجه مسلم في صحيحه : رقم 1040، باب كراهة المسألة للناس، 720/2

57-حمزة قاسم، منار القاري شرح صحيح البخاري، ج3(لا:ط، بيروت، مكتبة دار البيان ومكتبة المؤيد، 1410/1990) ص 48

58-الداودي، الأموال، مصدر سابق ص 199.

59-مجموعة من المختصين، موسوعة خضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج9(ط:1، السعودية، دار الوسيلة، 1418هـ/1998م)، ص439.

60-أخرجه مسلم في صحيحه، رقم 1040، باب من تحل له المسألة، 722/2.

61-محمد عبد الصاحب، المنهج النبوي في علاج التسول، مرجع سابق، ص ص 16-18.

62-موسوعة نضرة النعيم، مرجع سابق، 443/9.

63-بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج9 (لا:ط، دار إحياء التراث، لا:ت) ص61.

64-محمد ذياب، الفكر الاقتصادي، مرجع سابق ص206.

65-صلاح عبد الفتاح الخالدي، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، ج1، (ط:1، دمشق، دار القلم، 1428هـ/2007م) ص381.

66-الداودي، الأموال، ص200.

67-محمد ذياب[1]، الفكر الاقتصادي، ص200.

Jurisprudence Reality When Imam Daoudi The begging phenomenon is a model

By:

Abdul Jabbar Al-Yammn & Prof. Mustafa Ouinten

Faculty of Humanities and Social Sciences -University of Ghardaia

Abstract

The phenomenon of begging is one of the diseases experienced by societies in ancient and modern times, They cause damage to society, especially in the disruption of economic movement, Among the scientists who had a prominent role in the treatment of this phenomenon, Imam Ahmad bin Nasr al-Daoudi (402). Through the reality he experienced in the era of the Ubaidi State.

This study comes in order to identify the danger of this phenomenon and its consequences, and to find solutions to reduce it as required by Islamic Fiqh.

Keywords: Begging - Jurisprudence Reality- Imam Daoudi - The society - Islamic Fiqh.